



أزمة الهوية في أشعار عدنان الصائغ في ضوء النقد السوسيولوجي

Identity Crisis in Adnan Al-Sayegh's Poetry in the Light of Sociological Criticism

أمين نظري تربي

جامعة شيراز (إيران)

aminnazari@saadi.shirazu.ac.ir

يوسف نظري*

جامعة شيراز (إيران)

nazari.yusuf@shirazu.ac.ir

حسين سلمان علي زابر عبيد

جامعة شيراز (إيران)

husseinsalman7887@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
إن سوسيولوجيا الأدب تتعامل مع الظواهر والوقائع الأدبية تعاملًا اجتماعيًا فهمًا وتفسيرًا وتأويلًا، يربط الأدب بالمؤسسات الاجتماعية. إن العراق مرَّ بأحداث سياسية ضخمة منذ عام 1958 إلى 2003. عدنان الصائغ تعامل مع الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها تلك الفترة وتناولها بأساليب شعرية متنوعة. بناء على ما سبق قد حاول هذا البحث بالتركيز على المنهج الوصفي- التحليلي وفي ضوء النقد السوسيولوجي معالجة أزمة الهوية وتمظهراتها في المجموعة الشعرية الكاملة لعدنان الصائغ. نتائج البحث تبين أن ظاهرة التشيؤ، والشعور بالفراغ الوجودي والضياغ والانفصام عن الذات والأزمة الثقافية من أهم تمظهرات أزمة الهوية في أشعار عدنان الصائغ والتي تعاني منها الفئات المختلفة للمجتمع العراقي.	تاريخ الارسال: 2024/08/17 تاريخ القبول: 2025/02/15
	الكلمات المفتاحية: ✓ المجتمع العراقي: ✓ عدنان الصائغ: ✓ النقد السوسيولوجي: ✓ أزمة الهوية:
Abstract :	Article info
The sociology of literature examines literary phenomena and facts through a social lens, emphasizing understanding, interpretation, and explanation by correlating literature with social institutions. Iraq experienced significant political events from 1958 to 2003. Adnan Al-Sayegh addressed the political, social, and cultural occurrences of that period through various poetic styles. Accordingly, this research sought to employ a descriptive-analytical approach in conjunction with sociological criticism to explore the identity crisis and its manifestations within Adnan Al-Sayegh's complete poetry collection. The findings of the research indicate that reification, existential emptiness, loss, schizophrenia, and cultural crisis constitute the most significant manifestations of the identity crisis present in Al-Sayegh's poetry, affecting various strata of Iraqi society.	Received 17/08/2024 Accepted 15/02/2025
	Keywords: ✓ Iraqi society: ✓ Adnan Al-Sayegh: ✓ Sociological criticism: ✓ Identity crisis:

1. مقدمة:

كان الأدب على مر العصور وسيلة للبشر للتعرف على العالم ويعتبر الشعر نوعاً من التنظير الاجتماعي. من هذا المنطلق، فإن الشعر والقصة والرواية، وسائر الأشكال الأدبية تعد عناصر تعكس ثقافة الناس عبر العصور. لذا، فإن دراسة الأعمال الأدبية تمنحنا فرصة لاستكشاف أفكار ورؤى اجتماعية جديدة، فضلاً عن التحولات السياسية والاقتصادية ومستويات الوعي والعلم والأخلاق في المجتمع والبيئة التي نشأ فيها الكتاب. وبالتالي، يعكس الأدب قيم وسلوكيات وأخلاقيات العصر الذي يعيش فيه الكاتب. تتفاعل في الأعمال الأدبية ثلاثة أنواع من العوامل: البيولوجية والثقافية والتاريخية. تظهر العوامل البيولوجية في العرق، بينما يظهر العامل الثقافي في البيئة، ويبرز العامل التاريخي من خلال الزمن¹ والأدب هو تعبير عن الحياة بكل ما تحمله من صراعات وآلام وأفراح، كما أنه يعكس النفس وما يثيره فيها. له رسالة كبيرة تمتد داخل الحياة وخارجها، وتحبب في أعماق الإنسان وأفكاره.

هناك مناهج نقدية كثيرة تسعى الحصول على معنى النص بين المفردات والعبارات. فعدة منها أرادت عزل النص عن سياقه الاجتماعي. ولكن مع المحاولات الكثيرة لم تستطع عزل النص عن السياق الاجتماعي وعن المجتمع الذي تشكل فيه، فقد أثبت أنّ هناك علاقة وثيقة بين النص والمجتمع والبيئة ولا يمكن عزله عن بيئته ومجتمعه، لذلك من الواجب إعادة النص إلى السياق الاجتماعي الذي تشكل فيه، ودراسته من خلاله. وفي هذا المجال يعتقد النقد السوسيولوجي أنّ الأدب يتشكل في باطن المجتمع، وهو وجه من وجوهه. فيدرس هذا النقد تأثير الأدب على المجتمع وتأثير المجتمع على الآثار الأدبية². كما يرى غولدمان أن هناك علاقة وثيقة بين الحياة اليومية والأثر الأدبي، حيث تتناول الروايات التحولات التي تحدث في المجتمعات البشرية وظروفها، مع الإشارة إلى المتغيرات الخاصة التي تتفاعل مع الواقع الاجتماعي³. تعتبر المؤلفات الأدبية انعكاساً للظروف الفكرية والثقافية لكل عصر. "هناك علاقة احتجاج قائمة بين النص ككل ومحتوى النص، حيث أن المحتويات هي عناصر مستمدة من الحقل الاجتماعي الأيديولوجي"⁴ تعتبر المؤلفات الأدبية انعكاساً للظروف الفكرية والثقافية لكل عصر. فهناك علاقة قائمة بين النص ككل وبين محتوى النص والنص ككل من صياغة المبدع. أمّا محتوياته فهي عناصر مستمدة من الحقل الاجتماعي الأيديولوجي⁵. وللابتعاد عن المشاكل التي وقعت فيها المناهج السابقة، ظهر منهج يسمى بـ "سوسيولوجيا النص" كمنهج نقدي يهتم بالمعنى ويكتشف المجتمع فيه، لأنّ هذا المنهج يهتم بدراسة متخصصة وعميقة في النص.

1. جالي، جودت، (2017م)، الهجاء السياسي في الشعر العراقي، الشارقة: دار ضفاف للطباعة والنشر، ص 23-25.

2. الموسى، عبد الحميد أنور، (2011م)، علم الاجتماع الأدبي، بيروت: دار النهضة، ص 41.

3. غولدمان، لوسيان، (1993م)، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ترجمة: بدرالدين عروذكي، بيروت: دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 24.

4. المصدر نفسه، ص 24.

5. لحداني، حميد، (1990م)، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص 29.

ولد الشاعر العراقي عدنان الصائغ من أعماق المعاناة والفقر الذي فرضته ظروف سوداء على وطنه. فقد عانى في بلاده من قهر اجتماعي تجلّى في صورة فقر مدقع. ومعاناته كانت أعمق من قهر السلطة في العراق، مما دفعه إلى اتخاذ قرار لمغادرة الوطن في صيف عام 1993. من هذا المنطلق نلاحظ أنّ تجسيد القضايا الاجتماعية – السياسية جزء لا يتجزأ من أشعار الصائغ حيث استطاع الشاعر في قصائده التعبير عنها وإلقاء حلول لرفعها. بينما أنّ عدنان الصائغ ينتقد البنية الاجتماعية والسياسية لبلاده، يعدّ الحرب والاستبداد والاستعمار هي العوامل الرئيسة وراء أزمات الهوية التي لا تؤثر فقط على الناس العاديين بل تؤثر سلباً على طبقة المثقفين. وهذا حسب ما يرى ماركوز أنّ أزمة الهوية «تقضي على إبداعات الإنسان ومهارات التفكير عنده وأخيراً على حريته ولها نتائج مدمرة على الفردية وتجعل الإنسان عاجزاً ومنعزلاً عن نفسه¹». بناء على هذا، يحاول هذا البحث على أساس المنهج الوصفي – التحليلي وفي ضوء النقد السوسولوجي، التطرق إلى أزمة الهوية وتظاهراتها في المجموعة الشعرية الكاملة لعدنان الصائغ. كما يسعى أن يرسم العلاقة بين البيئة الخارجية للقصائد التي تشمل البنيات السياسية – الاجتماعية والثقافية للمجتمع العراقي مع بيئتها الداخلية. من هذا المنطلق يحاول البحث الحالي الإجابة عن الأسئلة التالية:

1. كيف كشف عدنان الصائغ اللثام عن تظاهرات أزمة الهوية في أعماله الأدبية؟

2. ما الأسباب التي أدت إلى ظهور أزمة الهوية في أشعار عدنان الصائغ؟

3. كيف تكون رؤية الشاعر في إلقاء الحل لأزمة الهوية؟

بناء على ما سبق تسعى هذه الدراسة الإجابة عن السؤال التالي:

اهتم عدد من الكتاب والباحثين بدراسة النقد السوسولوجي للشعر العربي من جهة والشعر العراقي من جهة أخرى. أما بالنسبة للبحوث والدراسات في آثار الشاعر عدنان الصائغ فقاموا بدراسته من الزوايا المختلفة إلا أننا نشير إلى ما يقترب بالجانب الاجتماعي والسياسي من بحثنا. وأما هذا الموضوع فلم يدرس بهذا العنوان ولكن توجد دراسات بعنوانين أخرى منها:

- قد تناول راحلة محمودي وسيد محمد رضا ابن رسول (2012) قضايا العراق السياسية في مرآة شعر عدنان الصائغ بالتركيز على المنهج الوصفي – التحليلي. ما توصّل إليه المقال هو أنّ عدنان الصائغ (1955م) من أخطر شعراء الحرب الذين أنجبهم جيل الثمانينات الشعري في العراق. عاش الحرب بكلّ تفاصيلها في جبهات الموت سنوات طويلة وكان يكرها غاية الكراهية. له مجموعات شعرية وأكثر موضوعات شعره في قضايا العراق السياسية والاجتماعية، ويمثّل تطوراً عضوياً للقصيدة الحديثة في العراق.

- قد عالج رسول بلاوي، وعلي خضري، وآمنة أبگون (2014) جماليات الأساليب البصرية في شعر عدنان الصائغ مستخدمين المنهج الوصفي – التحليلي. نتائج الدراسة تشير إلى أنّ العلامات الترقيمية التنقيط والصمت، والسواد والبياض والشكل المتموج، وتفتيت الكلمات، والأشكال الهندسية، والظلّ من أهمّ المظاهر البصرية المستخدمة. وكلّها تعبّر عن

¹. تسليمي، علي، (2011م)، النقد الأدبي: النظريات وطرائق استخدامها في الأدب الفارسي، ط2، طهران: كتاب آمه، ص156.

اضطراب الشاعر وتوتره واغترابه عن الوطن ووحشته. وكل هذا أدّى إلى تجسيم آلام الشاعر وحنينه إلى وطنه النائي البعيد عنه.

- علي خضري ورسول بلاوي، وآمنة أبگون (2015م) تناولوا في دراستهم ظاهرة الغربة أو الاغتراب في أشعار عدنان الصائغ. ما توصّل إليه هذا البحث هو أنّ الشاعر قد قام بتوظيف ظاهرة الغربة والحنين في أشعاره عامّةً وقد بالغ في اهتمامه بالوطن بسبب أنّه يجمع فيه كل ما يشواق إليه. والشاعر منفيّ مطرود من بلده بيد الدهر بسبب الظروف الخائقة التي طرأت في بلده. وأيضاً يبيّن الكاتب أهمّ الموضوعات التي تكشف عن حالات الغربة والسياسات التعسّفية التي أرغمتها على مغادرة العراق، ثم ركّز على مواقف الحنين إلى الأهل والأحبة، والمظاهر الطبيعية، وذلك في ديوانه "تأبّط منفي" و"تكوينات"؛ وهذا البحث يقدّم فكرة للقارئ عن مدى الظلم الذي قام به النظام البعثي تجاه النخب العراقية وعلى رأسهم الشعراء والكتّاب جزاء سياسات دفعت المواطنين إلى مغادرة البلاد.

- حامد صدقي وصبري جليليان، وعدنان اشكوري، وصغرى فلاحتي (2015) قاموا بدراسة بعض جوانب الهوية في أشعار عدنان الصائغ. يؤكد الباحثون أن نوعية حياة الشاعر في العراق والظروف السياسية في البلاد والهجرة القسرية للشاعر من العوامل التي أدت إلى أزمة الهوية لديه. العلاقة بين "الأنا" و"الآخر"، هوية الشاعر، الهوية الوطنية والهوية التاريخية هي القضايا التي تم تناولها في هذه الدراسة.

- رسول بلاوي وزينب دريانورد (2018) تطرّقاً تقنية الكاميرا الشعرية في قصائد عدنان الصائغ الملتزمة هذه الدراسة هي محاولة لإضاءة السرد السينمائي وبالأخص الكتابة بالكاميرا وتقنياتها في أشعار عدنان الصائغ الملتزمة، وفقاً للمنهج الوصفي - التحليلي؛ والنتيجة الحاصلة من هذه الدراسة تركز على استثمار الشاعر للصورة المرئية المتحركة والإتيان بها في النصوص الملتزمة. السؤال الأساسي الذي أراد البحث عنه هو كيف تجلّت تقنيات الكاميرا الشعرية في شعر الصائغ الملتزم؟ والهدف الأساسي لهذه الدراسة هو الكشف عن موقع الكاميرا بحركاتها الأفقية والعمودية وأنواع الزوايا المتعلقة بها التي تبرز شعوراً خاصاً في المتفرج كالشعور بالحركة والفوقية والارتباك. لا يخفي أنّ الكاميرا وتقنياتها الدقيقة تسوق القارئ من الصورة الجامدة الغنائية نحو الحركة ومواقع النظر المختلفة التي تشتمل على الزوايا المنخفضة والمرتفعة والمحايدة.

- هناء عابدين عبدالله (2022م) درست التشظي وأنماطه في شعر عدنان الصائغ. قد سارت هذه الدراسة على المنهج التحليلي لاستخراج وتحليل الظواهر الفنية والمعنوية المصاحبة لأنماط التشظي في شعر عدنان الصائغ. فتناولت الدراسة الدلالة المعجمية لمفردة التشظي في شعر الصائغ من جهة وأنماط ظاهرة التشظي في شعره من جهة أخرى، والتي تمثلت في: ظاهرة الحذف، ظاهرة التشذير، ظاهرة القطع، ظاهرة إشباع سياق النفي، ظاهرة التظليل، ظاهرة التشويه. فمن أهم نتائج هذه الدراسة هي أنّ مفردة التشظي ترددت بشكل مكثف داخل الديوان، حتى أصبحت كلمة دالة على هذه الحياة المبعثرة التي عاشها الصائغ في بلاد العالم المختلفة. كما أنّ الصائغ اتخذ من الحذف لغة للمحو والغياب، حتى أصبحت لغة المحو لديه حالة وجودية يستقي منها حضوراً غائباً لكل الأشياء التي مرت به.

اهتمّ عدد من الكتّاب والباحثين بدراسة السوسيولوجية وتطبيقها على النصوص الأدبية وعددها كثير ليس هنا مجال للحديث عنها فنذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر.

- خاطرة أحمدي، وسيد محمد خاقاني، ونركس كنجي (٢٠١٧)، درسوا السوسولوجية في رواية "ذات" لصنع إبراهيم شارحين القضايا الاجتماعية والايديولوجية التي عاش فيها المجتمع المصري وتشير النتائج إلى أنّ صنع الله إبراهيم يعرف حياة الطبقات المصرية المتوسطة وحاول ترسيم العلاقة الوثيقة بين الأدب والمجتمع وهذه الرواية تتشكل من فئتين اجتماعيتين مختلفتين في الوقت ذاته.

- أمير فرهنك نيا (٢٠٢١)، قام بدراسة سوسيونصية في رواية "خان الخليلي" لنجيب محفوظ شارحاً التوصل إلى أهم ميزات الحياة الاجتماعية في المجتمع المصري وكيفية ظهورها في الرواية ووصل إلى الحوار وخطاب الشخصيات. والمكان الروائي يعدّ من أهم المناظر التي تطرّق إليها نجيب محفوظ. احتلّ المكان الروائي دوراً مميزاً في التعبير عن الواقع الاجتماعي ومدلولاته.

- مريم رحمتي تركاشوند، وجهانگیر أميري وطاهرة فلاحی (2021) قاموا بدراسة سوسيولوجية لرواية «غنيمت» في ضوء نظرية جورج لوكاتش، واعتماداً على المنهج النقد الاجتماعي الأدبي ومن أبرز النتائج التي تفيدنا هذه الدراسة هي أنّ رواية "غنيمت" تعتبر عملاً ناجحاً من منظور النقد الاجتماعي وهي رواية تنطوي على قصة خيالية استمدّ الكاتب أحداثها وشخصياتها من الواقع أعطى القارئ صورة واضحة عن الظروف الاجتماعية المتأثرة بالحرب أو الاحتلال. والنتيجة تندرج في إطار سوسيولوجية الأدب وهي تقوم على نظرية "لوكاتش" التي تؤكد بأنّ هناك تأثيراً متبادلاً وعضوياً بين أحداث الرواية وأبطالها والواقع الذي نشأت فيه الرواية.

واهتمّ الباحثون بدراسة أزمة الهوية وتبلورها في النصوص الأدبية ومنها يمكن الإشارة إلى:

- أحمد مندور (2020) عالج أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. تطرق الباحث في هذا الكتاب إلى الهوية الجزائرية وأدب الجزائريين المكتوبة بالفرنسية وشم إشكالية الهوية والانتماء الخاصة بمؤلاء الكتاب من خلال الإنتاجات الأدبية وذلك في ضوء الأزمات الاجتماعية والسياسية التي مرّت بالجزائر والكتاب الذين درس آثارهم.

- وسام عباس جعيجع (2022) تناول أزمة الهوية في الرواية العراقية ما بعد 2003 متتبّعاً تمثّلات أزمة الهوية فيها خاصة البعد الذي يعبر عن صراع الهويات الاجتماعية والطبقية ودور التاريخ والسلطة السياسية ونتائجها السلبية في تكوين أزمات نفسية واجتماعية حادة. ومنهج البحث نابع من منظور الدراسات الثقافية إذ يتعلق بجانب منه بالإطار الاصطلاحي النقدي الخاص بالتحليل السردى وبجانب آخر بالدراسات الثقافية التي انتشرت في الدراسة الأدبية الحديثة منذ ستينات القرن الماضي.

- محمد وهابي (2022) عالج أزمة الهوية عند الشاعر محمد الفيتوري التي لازمته على امتداد مسيرته الشعرية واتخذ انتمائه الإفريقي وهو الزنوجة منطلقاً أساسياً لتحديد هويته. وقام الشاعر بالدفاع عن الهوية العربية ولم تتوقف هوية الشاعر عن التلون بحيث حاول في بعض القصائد أن يمنحها بعداً كونياً وذلك بدعوته إلى إنسانية الإنسان في كل زمان ومكان.

- حسام الدين صباح عزيز كاظم (2023) درس أزمة الهوية في الرواية العراقية المعاصرة وتستند المقالة على نظرية إريكسون الخاصة بأزمة الهوية لدراسة الشخصية الرئيسة في رواية شجرة الرمان للروائي سنان أنطون في إطار الحرب والتغير الثقافي. وتسعى هذه الدراسة إلى تبين التعقيدات التي تتخلل أزمة الهوية المستخدمة من قبل الكاتب في الرواية التعامل مع صعوبات الهوية الذاتية أثناء الأوقات العصيبة.

2. الإطار النظري للبحث:

1.2 النقد السوسيولوجي:

دراسة السوسيولوجية للأدب، نوع من الدراسات المشتركة بين الفروع التي تلفت نظر الباحثين في فرعي علم الاجتماع والأدب. وما يسبب الخلاف بين النقد السوسيولوجي وسائر أساليب النقد الأدبي هو الاعتقاد بهذه النظرية أنّ في الإبداع الفني لايهتم بالشخص الواحد؛ بل إنّ الأثر تعبير عن نوع من الوعي الجماعي¹. سوسيولوجية الأدب تنقسم إلى سوسيولوجية الظاهرة الأدبية وسوسيولوجية الأثر الأدبي وهذه المسألة تعود إلى الخلاف الذاتي لهذا الفرع العلمي.

سوسيولوجية الظاهرة الأدبية تعدّ الأدب موضوعاً اقتصادياً وتتطرق فيها إلى دراسة مسار الإنتاج والتوزيع والاستهلاك للأثار الأدبية ومندوبها الرئيس هو روبراسكاربيت. وسوسيولوجية الأثر الأدبي تؤكد على تحليل الجوانب الأدبية ومن ثمّ إيجاد العلاقة بين المجتمع والأثر الأدبي ومن أكبر منظّريها لوكاتش ولوسيان غولدمان. يعتقد مؤسسو هذه النظرية بأنّ سوسيولوجية الظاهرة الأدبية، منهج متعلق بعلم الأدب ونحن نسميه علم التاريخ- السوسيولوجية للأدب². النقد السوسيولوجي من الأساليب المؤثرة في نقد النصوص الأدبية بشكل عام والرواية بشكل خاص. في هذا الأسلوب، يدرس علاقة بنية الرواية وفحواها مع ظروف وتحولات المجتمع والبيئة التي وُلدت فيها، ويحلّل كيفية انعكاس والظهور الفنية للمجتمع في العالم الخيالي للأثر الأدبي. في مدرسة النقد الاجتماعي يُعرض الموضوع الاجتماعي أهم من الموضوع الجمالي، في حين يجب على الناقد أن يهتم بالموضوع الجمالي كالموضوع الاجتماعي، ويؤخذ من النص أكثر من استطاعته، كالنقد الماركسي الذي يعتقد بالعلاقة بين النص والبنية التحتية -الاقتصاد-³. حيث إنّ ماركس وأنجلس من بين نظرياتهم في تفسير التاريخ والتقدم الإنساني والاجتماعي المؤسّس على العامل الاقتصادي وأجهزة الإنتاج يعطون بعداً فلسفياً للواقعية ومن ثمّ النقد الاجتماعي. هذه النظرية تعتبر جميع النشاطات الإنسانية في المجتمع التي تشمل الأدب والفن البنية الفوقية وتحركها البنية التحتية وهي الاقتصاد والإنتاج المادي⁴.

1. عتيق، عبد العزيز، (1972م). في النقد الأدبي، الطبعة 2، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص 324.

2. الأنطاكي، يوسف، (2009م)، سوسيولوجيا الأدب (الآليات والخلفية الإبيستيمولوجية)، القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، ص 36.

3. زبما، بير، (2010م). النص والمجتمع (آفاق علم اجتماع النقد)، ترجمة: أنطوان أبو زيد، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ص 13.

4. ساري، محمد، (2009م)، الأدب والمجتمع، الجزائر: دار الأمل، ص 235.

الماركسية التي كانت متأثرة من عقائد كارل ماركس (1818م-1883م) هيمنت على قسم هام من النظريات الأدبية والسوسيولوجية في القرن العشرين. من وجهة نظر ماركس وتابعوه، يتأثر الأدب من المجتمع كما يؤثر عليه. إنّ الماركسيين ينظرون إلى الأدب كسلاح ويعتقدون أنّ الطبقة العاملة يجب أن تتمتع منها كسلاح لإحقاق حقوقها المسلوبة¹. ويعتبر لوكاتش وغولدمان من أكبر منظري مكتب السوسيولوجي في الأدب أو النقد السوسيولوجي. في هذا الاتجاه ضمن الاهتمام بالجانب الاقتصادي لخلق الأثر الأدبي ومسار قبوله من قبل القراء، يهتم اهتماماً بالغاً بفحوى الأثر الأدبي وعلاقته مع المجتمع الذي حُلِق فيه. ويهتمّ اتجاه النقد السوسيولوجي في مراحل المتقدمة بتطبيق الرؤية إلى العالم في مجتمع وفي عصر محدد مع الإطار وفحوى الآثار الأدبية والفنية المخلوقة في ذلك المجتمع وذلك العصر. وتأثر لوسيان غولدمان من آراء جورج لوكاتش واستطاع أن يحوّل سوسيولوجية الأدب أو علم اجتماع الأدب إلى اختصاص أكاديمي. بناء على المواضيع المذكورة نستطيع القول إنّ سوسيولوجية الأدب هي اتجاه نقدي تدرس آثار الفنانين في مجالات الحياة والأدوار التاريخية الخاصة، وبشكل خاص تؤكد على آثار الفنانين الذين يعرضون الإنسان في العلاقة مع زمانه وبالشكل الواقعي. إضافة إلى هذا إنّ التحليل السوسيولوجي يعتبر أحد أهمّ العناصر لتحليل الأثر الأدبي وحيث إنّ الرؤية الديالكتيكية توفرّ الفهم الأفضل لمجموعة المسيرات التاريخية والاجتماعية لكلّ عصر، إذن بمساعدتها يمكن تبين العلاقات الموجودة بين المسيرات والآثار الأدبية المتأثرة منها.

2.2 الهوية:

برز مصطلح الهوية في عدة مجالات علمية ولا سيّما في مجال العلوم الإنسانية، ويعتبر من أكثر المفاهيم تغلغلاً في عمق الحياة الثقافية والاجتماعية والعقائدية وعلى الرغم من بساطة الظاهرة فيها إلا أنّها تتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والخصوصية. تعتبر الهوية بمثابة شفرة يمكن للفرد من خلال الأدب أن يتعرف على نفسه وعلى علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والتي يتم التعرف عليه من خلالها باعتباره جزءاً منها لا إلى غيرها². إنّ الهوية «مجموعة من الخصائص التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي تنتمي إليها والتي تميّزه عن الأفراد المنتمين للجماعات الأخرى، هذه الخصائص أو المميزات الجمعية لا تتكوّن صدفة أو بقرار في لحظة تاريخية ما بل تجتمع عناصرها وتطبع الجماعة بطابعها على مدار تاريخ الجماعة من خلال محيطها³» إذن الهوية تعني الخصائص المشتركة والسمات المشتركة بين الأشخاص، وتبرز في ترسيم الاختلافات والمفارقات مع الآخر. الهوية ترسيم التشابه والتمايز بين شيئين أو شخصين: ونوعية التواصل بينهما؛ وقد تدلّ على الاندراج ضمن جماعة كما تدلّ أحياناً على الإقصاء. هناك الهويات المتعددة التي تتكوّن عبر العلاقات المختلفة داخل الإطار السيميائي للبنية

¹. عتيق، عبد العزيز، (1972م). في النقد الأدبي، ط 2، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص 59.

². دلول، سبرين، (2022م). أزمة الهوية وإشكالية الانتماء في الرواية الإفريقية مقارنة في رواية سمراوت لحجي جابر من منظور النقد الثقافي، قسم أدب عربي، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي التبسي: الجزائر، ص 14.

³. بن نكاع، مولاي أحمد، (2013م)، ملامح الهوية في السينما الجزائرية، قسم الفنون الدرامية، كلية الأدب واللغات والفنون، جامعة وهران: الجزائر، ص 73.

الثقافية¹ وليست عملية الهوية أمراً يكسبه الشخص أو يعطيه بل هي عملية متطورة تتحول وتتغير. كل مجتمع إنساني يرسم لنفسه حدوداً فكرية ثقافية اجتماعية و... والمستويات والطبقات المختلفة، فالمجتمع يعيش في طقوسه ويتبنّاها كالهوية ويمارسها كالمعتقد².

إن مصطلح الهوية ليس وليد الساعة، بل هو يضرب بجذوره في عمق تاريخ الفكر الإنساني انطلاقاً من الفكر الأرسطي، يرى أرسطو أنّ الهوية تعبر عن شكل من أشكال الثبات المخالف للتغيير، وهذا يعني أنّ الهوية بحسب رأيه تعني أن الشيء (هو، هو) لم يطرأ عليه أيّ تغيير³. ثم يأتي دور ديكرت الذي طور رؤيته لمصطلح الهوية من خلال إجراءات لعملية تفكير منطقية قادته من مرحلة الشك وعدم اليقين في كل شيء إلى نتيجة اكتشاف أنا موجود أولاً، ومن ثم بداية مرحلة التعرف على نفسه حيث يقول: «بدأت أعرف أيّ شيء أنا»⁴.

3. الدراسة والتحليل:

1.3 مظهرات أزمة الهوية:

لعبت التطورات السياسية والاجتماعية مثل الحروب والمظاهرات في العراق دوراً بارزاً في ظهور أجواء جديدة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. تأثر الأدباء بهذه الأجواء وانسجموا معها، بل أبدعوا في التعبير عنها من خلال أعمال أدبية تحمل طابعاً اجتماعياً وإنسانياً. يعد عدنان الصائغ من أبرز نجوم الأدب العربي المعاصر، حيث استطاع أن يبدع العديد من الأعمال التي مرت بمراحل تاريخية واجتماعية وفلسفية. إنّه يعرف حياة الطبقات العراقية المتوسطة معرفة عميقة. فيما يلي نحاول أن نبين أهمّ مظهرات أزمة الهوية في المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر عدنان الصائغ أي ظاهرة التشيؤ، والشعور بالفراغ والعدم، والأزمة الثقافية ذلك مستعيناً بالنقد السوسيولوجي ونعالجها بالدراسة والتحليل:

1.1.3 ظاهرة التشيؤ:

التشيؤ هو العملية التي يتم جعل مفهوم تجريدي موضوعياً بأكبر قدر ممكن في أبسط أشكال المصطلح. كما أنه يتم النظر إليه كذلك كما لو كان شيئاً راسخاً أو مادياً. وفي هذا الإطار، يكون المصطلح مرادفاً لمصطلح "التحويل إلى أدوات". هو تحويل الظاهرة الإنسانية (الإنسان) إلى شيء ليس له أي دور إنساني بعد وإن استلبت منه قدراته العقلية وإرادته، أصبحت في الحالة الضمنية السلعة مثل ما أطلق عليه ماركس. التشيؤ «هو أن يتحول الإنسان إلى شيء تتمركز أحلامه حول الأشياء لا يتجاوز السطح المادي وعالم الأشياء وتصبح العلاقات بين البشر مثل العلاقات بين الأشياء. وعندما يتشيؤ الإنسان فإنه سينظر إلى مجتمعه وتاريخه الذي هو إنتاج جهده وعمله وإبداعه باعتبارهما قوى غريبة عنه وتصبح

1. ميكشيللي، أليكس، (1993م)، الهوية، ترجمة: علي وطفة، دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعة، ص 24-27.

2. المصدر نفسه، ص 46.

3. مهرا، محمد، (1994م)، مدخل إلى المنطق السوري، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 44.

4. ديكرت، رنتيه، (1988م)، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج، بيروت: منشورات عويدات، ص 24.

العلاقات الإنسانية أشياء تتجاوز التحكم الإنساني، فيصبح الإنسان مفعولاً به لا فاعلاً فهو لا يملك من أمره شيئاً¹ كما يستخدم هذا المصطلح كذلك لوصف التعامل مع البشر كشيء، مع تجاهل شخصيته وإحساساته. إذن التشيؤ ظاهرة يصبح في ظلها الناس مجرد موضوعات تسيرهم ميولات تكنولوجية واقتصادية وسياسية وأيديولوجية، وتحدد سلوكياتهم، مصالح اجتماعية محددة يفرضها النظام السياسي الاستبدادي القائم على السلطة ممثلاً بأحواله الاجتماعية. فلهذا عرّفه جورج لوكاش بتحوّل العلاقات الإنسانية إلى الأشياء الجامدة وخاصة إلى التبادل التجاري².

عدنان الصائغ ضمن انتقاده من ظاهرة التشيؤ يعتبر القدرة وحب السيطرة على الناس أداة حلت محل الإنسان والتي تؤدي دوراً لافتاً في تحويل الإنسان إلى شيء تتعامل معه كما تحب وترضى. يرى الشاعر أنّ هذه الظاهرة دمّرت البشرية وداس على قيمها وكرامتها. فقد صور الصائغ نوعين مختلفين من وجهات النظر من خلال وضع مفهومين متعارضين للإنسان في مواجهة بعضهما البعض، في خضم هذه الظروف الصعبة والوضع المأساوي، وسط الضغوطات السياسية والانفلات الأمني الذي يعصف بالبلاد، تبرز هذه الشخصية لتجسد الفكر الإصلاحي والإنساني. الشاعر في قصيدته يتعاطف مع الشعب بكافة أبعاده، معبراً عن معاناته القاسية بدوافع إنسانية مشتركة. وهو يخاطب وينتقد عمال الحكومة الطاغية الذين يعتبرون البشر شيئاً يستغلونه ويقتلونهم بغية الحصول على المال واكتساب المكانة وملء فراغهم باللهو يرى الشاعر بأنّ الإنسان قد أصبح بلا هوية إذ يتعامل معه كسلعة وأداة تمهّد الطريق أمامهم لتحقيق غاياتهم الشنيعة فهي توفير المال وإحراز المكانة فيرى الشاعر بأنّه لا ثمن لهذا المقام الذي كسبه عمال الحكومة على دماء مواطنيه في قوله: كم عيناً فقأت/ أيّها المدفعي/ لتضيء على كتفك كلّ هذه النجوم³

يرى الشاعر أنّ الحروب وما ينتج عنها من قمع وفقر هو العامل بعينه في تفشي ظاهرة التشيؤ البشري، بحيث مع انتشار الفقر، تندبّ فعالية الإنسان ومصيره إلى مستوى السلع. فأصبحت العراق البلد التي يتكسب فيها الفقر والحرمان. إن هذه الحكومة قوّضت مفهوم الإنسانية إلى حد الاحتياجات المادية الأساسية، بما في ذلك الطعام والملبس والقضايا الجنسية، وبتصرفاتها الطائشة وسياساتها القمعية، قد وفرت الأساس لتشويه سمعة الإنسان العراقي وتحويله وتنزله إلى الشيء والسلع. يعتقد الشاعر أن أسباب الفقر في العراق تعود إلى الحروب والظلم الذي تعاني منه البلاد. ولا يكفي الشاعر بذلك بل يكشف عن مأساة الفقر التي لا تزال تضغط على الناس، وتحملهم ما لا يليق بالإنسانية من قسوة مثل بيع الأبناء. ماذا يفعل الفقير إذا جوعته البلاد والحكام ولا يستطيع حتى البكاء؟:

والبلاد التي.../ تباع بنينها.../ إذ جوعتها الحروب/ فماذا تباع إذا جوعتك البلاد/ وضاعت بدمعتك الحديقة...⁴

1. التريكي، عبد الوهاب المسيري فتحي، (2012م)، الحداثة وما بعد الحداثة، ط2، الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع، ص346.

2. عشاب، نجلاء، (2021م)، إشكالية التشيؤ عند جورج لوكاش، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة: الجزائر، ص14.

3. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية - عدنان الصائغ، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص103.

4. المصدر نفسه، ص130-131.

بناء على ما سبق ، اعتبر عدنان الصائغ ظلم الحكام أداة للحفاظ على سلطتهم ومكانتهم، مما غيّر وحول المفاهيم والقيم. وعندما يضطرّ المجتمع العراقي إلى مبادلة أبنائه بشيء تافه مقابل تلبية احتياجاته الأساسية، فإنهم في النهاية يقضي نحبهم على أيدي هؤلاء الحكام المستبدّين ومرة أخرى مقابل حماية مصالحهم والحفاظ على سلطتهم، فيتم قياس قيمتهم وكرامتهم المداسة على أساس معايير اقتصادية وسياسية؛ لأنه في المجتمع العراقي المنخرط في الاحتلال العسكري والحرب والاختناق، تعتبر المعايير الاقتصادية خير مثال لتلبية احتياجات الإنسان. يعاني المجتمع العراقي الواقع تحت سيطرة الغزاة والمستعمرين من الظروف المزرية الناتجة عن الحروب المستمرة التي تمخّضت عن عاقبة لم تحمد عقبها بما فيها أزمة الهوية، إذ إنه في البلدان الخاضعة للاستعمار والحروب الشعواء يتعامل النظام الاقتصادي مع البشر كشيء يتجاهل شخصيته وإحساسه ومعنوياته وبالتالي تتحطّم حرّيته وتضاع أحلامه ويشعر بالفراغ والعدم¹. لأن الظروف التي تحكم هذا المجتمع جعلته أداة تافهة وحاجته إلى المال دفعته إلى بيع أبنائه.

وجّه عدنان الصائغ نقداً لاذعاً تجاه الانتهازيين من عمال الحكومة لتحوّل الإنسان إلى أداة تافهة لزيادة قوتهم ومكانتهم في المجتمع الذي مرّفته الحرب ويعتبر ذلك مثلاً صادقاً وواضحاً على تشييء مواطنيه. وفي قصيدة "بيادق" يقف ككاتب مناضل في وجوه الحكام لمعارضة النظام الذي تعتبر ظاهرة التشيؤ من مؤشرات الرئيسة، لأنه تحوّل الإنسان إلى شيء وأداة يدوس كرامته وينهب إنسانيته من جهة، ومن ناحية أخرى فإنه يوفر المزيد من الثروة والسلطة للحكام الجشعين. لذلك نجده في القصيدة المذكورة يعدّ الجنود أداة يستغلّها دعاة الحرب لتوفير مزيد من القوة والمنصب للحكام الجشعين وعمال الديكتاتور:

بيدقني السلطان/ جندياً في حرب لا أفقهها / لأدافع عن رقعة شطرنج - لا أدري - / أم وطن أم حلبة/ ولهذا أعلنت العصيان/ لكنّ الجنّد الخُصيان/ قادوني معصوب العينين إلى الحُشبة/ وأداروا نحوي فوهاتٍ بنادقهم/ فصرخت: قفوا/ سُجّزُون على هذي الرقعة،/ كبشاً كبشاً/ كي تعلو - فوق سلام أشلائكم - التيجان²
إنّ عمال الديكتاتور لا يدركون أنهم مجرد آلات بيد الحاكم، والذي يحوّلهم إلى بيادق في حرب لا يعرفون إن كانت رقعة شطرنج أم وطن أم ساحة لسباق المسافات الطويلة. ومع ذلك، أعلن الجندي الثائر عصيانه، فقاده نحو المقصلة وأسلحة الفناء تتجه نحوه، فيصرخ: دعوني، فهذه ستكون عاقبتكم أيضاً، ستحوّلون إلى أكباش، وتعلو فوق أشلائكم تيجان السلاطين: انتبهوا، وتأملوا.

بناء على ما أسلفنا، إنّ ميول الانتهازيين الجاحمة إلى الثروة والمال وإحراز المكانة يعدّ أساساً في تحوّل الإنسان إلى الشيء والأداة وهذا ما نجده كثيراً في قصائد عدنان الصائغ بحيث أصبح سمة بارزة دلالية تتمحور حولها قصائده. في الحقيقة تصبح هذه الأداة كياناً موضوعياً مستقلاً تطغى على العلاقات الأخلاقية بين البشر وتتحكم عليها؛ وبالتالي من خلال توفيرها إمكانيات لتلبية الحاجيات، فإنها تؤثر سلباً على سلوك الناس وتؤدّي إلى تهميش الهوية الحقيقية للشخص. بعبارة أخرى كلا الفاعل والمفعول يخضعان لسيطرة المال كعامل خارجي وموضوعي، وينسون هويتهما الإنسانية وينغمسان في

1. ماركوزه، هريوت، (1980م)، انسان تك ساحتی، ترجمة: محسن مؤيدي. ط3. طهران: انتشارات امير كبير، ص168.

2. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية - عدنان الصائغ، عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص43.

سلوكيات غير إنسانية. وهذا يعني أن «السلع والأموال تظهر وكأنها مرتبطة ببعضها البعض بشكل حصري وتخفي حقيقة أنها نتاج عمل بشري وبالتالي تجعل الناس يدخلون في علاقات معينة مع بعضهم البعض»¹. في المقطع التالي، نلاحظ أن الانتهازيين يتحينون الفرص لاكتساب المناصب والشهرة والثروة ولا شك أن هذا لا يؤدي إلى تقدم الإنسان وتوصله إلى الكمال، بل يمهّد الطريق للتفاعل بين الأشرار (الحكام) حيث يستغلّون هذه الأداة للضغط على الآخرين (المجموعات الفرعية) لتحقيق أغراضهم البشعة:

في عصر الطغيان/ كان الشعراء الخصيان/ كالفتران- / ينكمشون بحجر السلطان/ يغنون/ بأجناد جلالته/ وبنعمته/ وتظل حروفك/ في كل زمان ومكان/ تمشي.... / وعلى كتفها الصّلبان²

عدنان الصائغ لا يعتبر حب الجاه والثروة وسيلة لتسهيل حياة الناس، بل يراه عبئاً على كاهل البشرية، يعذب الضعفاء ويزيد من عنجهية الظالمين ووحشيتهم. يقول الصائغ: «جرّ علينا ما جرّ من وشايات المخبرين والأدباء الفاشلين في الداخل وفي المنفى أخذ منه بعض المزايدين على عذاباتنا»³ إنّ هؤلاء الأدباء يمدحون السلطان وبهذا مساهمون في قتل البشرية.

2.1.3 الشعور بالفراغ والضياع:

إن الشعور بالفراغ والعدم والضياع في الحياة يعدّ من التداعيات السلبية لأزمة الهوية، والتي قد تكون لها آثار ضارة على الشخص والمجتمع. إنّ هذه الظاهرة ترتبط بفقدان المعنى في الحياة، وهو حالة من الملل والسأم يشعر من يخبرها بأنّ الحياة تمضي بغير معنى أو هدف، وأنّ حياته راكدة مثل بحر آسن، ومملة تخلو من أي نبض ينطق بالحياة وبالمعنى. كما أنّ فقدان المعنى يعني أنّ الحياة لا معنى لها، وأنّها تسير وفق منطق غير معقول، ومن ثم يشعر الفرد بأنّ حياته عبث لا جدوى منها، فيفقد واقعيته، يهبأ لمشاعر اللامبالاة والفراغ الوجودي⁴ وهذا النوع من الأزمة قد تسببه القضايا الاجتماعية والبنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع، وقد تعزى لنظرة الشخص إلى الوجود والقضايا الدينية. مهما يكن من أمر، فما يبدو مهماً في مناقشة الهوية وأزماتها هو الإشارة إلى أن هوية الإنسان وخصائصه هي دالة على موقعه ومكانته في المجتمع. ثورة تموز عام 1958، وحرب عام 1980-1988، وحرب العراق ضد الكويت عام 1990، وحرب عام 1991، وحرب عام 2003 وإرهابيتها الخطيرة كلها قد أثرت مباشرة في الشعور بالفراغ والضياع عند رجال الدولة والمجتمع العراقي. وفي نفس الوقت نلاحظ أنّ قيمة البشر ومكانته لا تكون محطّ الاهتمام وهي ضالة لا بد البحث عنها في هذا النوع من المجتمع. إنّ الشخصيات السلبية والمصابين بالفراغ والضياع والانفصام عن الذات هي من إرهابات

1. كاريغن، بيتر، (2014م)، بت وارگی کالاها: مروری بر برخی پیامدهای سرمایه داری و تأثیر آن بر رفتار انسانها، ماهانه سوژه سبک زندگی، العدد 81. ص 36.

2. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية- عدنان الصائغ، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص 27.

3. المصدر نفسه، ص 555.

4. عيد، محمد إبراهيم، (1990م)، الاغتراب النفسي، القاهرة: الرسالة الدولية للإعلان، ص 16.

ومضاعفات المجتمع الذي يعاني من الفراغ الوجودي والنفسي في المجتمع العراقي والذي أنتجت الحرب والقمع الاقتصادي والسياسي.

الشعور بالفراغ والضيق هو أحد المواضيع التي ذكرها عدنان الصائغ في قصائده مباشرة وغير مباشرة. مما لا شك فيه أن الحرب وآثارها المدمرة هي من العوامل المهمة التي أحدثت شعوراً باليأس والفراغ لدى الشاعر ومجتمعه. تُعد الصراعات الإنسانية التي قد تؤدي إلى الحرب جزءاً قديماً من تاريخ البشرية، وقد تزامنت مع وجود الإنسان منذ معركة هابيل وقابيل. لذلك، تُعتبر الحرب حالة استثنائية عند الشعوب، حيث تُحدث دماراً سريعاً لما تم بناؤه عبر عشرات بل مئات السنين. إن الحرب تمثل تحولاً مفاجئاً في مسار الحضارة ونمط الحياة. فهي تسبب الخراب، وتنقسم إلى نوعين: خراب مادي وإحباط نفسي. يُعبر الشاعر في بعض قصائده عن معاناته من تأثير الحرب على معنويات الناس وحياتهم، مُشيراً إلى أن الحرب تُعد آلية لتدمير ما تم بناؤه على مدار سنوات عديدة، وهو ينفر من الحرب وما تتركه من تداعيات مدمرة. يشير الشاعر في المقطع التالي إلى أن الحرب سحقت أحلامه وأخذت ثمانية أعوام من عمره ومروج طفولته التي مازال معه ذكرها فيصف بشاعة الحرب بكثير ويتمنى حلول السلام في بلده بعد كل ما نرفته الحروب من دماء الأبرياء:

خذ ثمانية أعوام من عمري، وصِف لي الحرب/ خذ عشرين برتقالة، وصِف لي مروج طفولتي/ خذ كلّ دموع العالم، وصِف لي الرغيف/ خذ كلّ زهور الحقائق، وصِف لي رائحة شعرها الطويل/ خذ كلّ البنوك والمعسكرات والصّحف، وصِف لي الوطن/ {...}/ أقرّ أنّ القنابل علّمتني الكثير/ أقرّ أنّ القنابل مسحت الكثير من أحلامي أيضاً/ أقرّ أنّ القنابل لا تكذب {كما تفعل البيانات والقادة}/ خذ إذن كلّ القنابل وصِف لي بشاعة الحرب/ خذ كلّ نزيه الحرب... وصِف لي سلامٍ بلادي¹

كما لاحظنا في المقطع السابق أنّ الشاعر في هذا النص المشحون بالألم، يعبر عن استنكاره للحرب وما نتج عنها من عواقب كارثية. فقد تركت الحرب في قلوبهم شعوراً بالفراغ والعدم، في ظل معاناة الفقر والشقاء. ولا مخرج من هذه المأساة سوى الموت الذي يخيّم على المجتمع. يرفع الشاعر صوته مطالباً بنشيد الحرية والمحبة والأمان، إذ لا معنى للإنسانية بدون هذه القيم النبيلة. وفي قصيدة "الجنوب" كثيراً ما يصرخ عدنان الصائغ شاكياً يندّد بالحرب التي طالت وسرقت أحلامه ونصف عمره وأضرّت وعاثت خراباً يشعره بالفراغ والعدم في قوله (نحن طعام المعارك):

ما هكذا...؟! / يا مدينة،/ تنسين عمري الذي سرقت نصفه الحرب/ ما هكذا، يا مدينة تنسين أحزاننا/ والوجوه التي غيّبتها الخنادق/ ما هكذا يا مدينة... نحن طعام المعارك/ كم صدحت/ في الأناش / أسماؤنا².

يبدأ الشاعر خطابه بالاستفهام «ما هكذا» وهو استفهام يكشف عن ظروف مأساوية تعجّ بنفسية الشاعر الذي يحمل هموم شعبه في نفسه، جاء الشاعر بسؤالين مبتورين في بداية القصيدة ومنتصفها «ما هكذا...» الأسئلة المبتورة دلاليّاً جاءت لتعبّر عن حالات الانكسارات التي تعتصر قلب الشاعر جراء الحرب والدمار، فترك السؤال ناقصاً ليفتح المجال للمتلقّي كي يشاركه في همومه وتطلّعاته يبدو أن الحالة المأساوية في نفسية الشاعر قد تفاقمت إلى حدٍ لا يستطيع فيه

¹. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية- عدنان الصائغ، عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص285-286.

². المصدر نفسه، ص192-193.

التعبير عن ألمه، حيث إن هذا النوع من الاستفهام في هذا السياق يحمل دلالات عميقة تكشف عن آمنيات الشاعر وطموحاته في تحقيق السلام والأمان. والسؤال الآخر يربط بين هذه المحنة والأبعاد الإنسانية، إذ إن الظروف القاسية والمحن المتتالية تدين الإنسانية، فلا معنى للإنسانية تحت وطأة هذه الظروف.

عدنان الصائغ في قصيدة "شوارع .. ولغة .. وعيون سود" التي أنشدها عام 1988م في بغداد في الشهر الذي وضعت الحرب العراقية الإيرانية أوزارها يرى أنّ أحد الحلول للخروج من أزمة الفراغ والشعور بالضيق هو إحلال السلام والهدنة والتخلي عن الحرب. يتمنى الشاعر أن تتلاشى من ذاكرة الشعب صور المدافع والرشاشات التي غزت كل ما حولها، ليحل الأمن والسلام في بلده، ويستريح شعبه من عناء الحرب والخراب والدمار إلى الأبد ويخرجون من بيوتهم على بكرة أبيهم معبرين عن الفرح المخبوء في نفوسهم. ففي هذا المجال استخدم الشاعر مفردات ذات زخم شعوري مكثف (ننقض، نتدفق، جنون فرح المخبوء، يستريح) كلّها توحى بالسلام والأمن والاستقرار. يقول فرحاً بعد أن يعلن المذيع نهاية الحرب بعد ثمانية أعوام:

من عرف معنى الحرب غيرنا؟ / من دخل مسامحاً؟ من لا كتبه بين أسنانها ثمانية أعوام؟ / من ترك أحلامه معلقة على مشجب الانتظار، وحمل حقيبة الحرب وأمشاط الرصاص وغاب طويلاً في الأفواج المتقدمة.. / وما نحنُ نعود الآن ننقض بقايا المعارك عن أجسادنا وأرواحنا، / ونجلس قليلاً في انتظار صوت المذيع المتهدج وهو يعلن البيان الأخير للحرب / لنخرج أو قل لتندفق إلى الشوارع بكلّ جنون فرح المخبوء طيلة ثمانية أعوام / بكلّ هذا السيل الذي اكتسح كلّ شيء.. / {...} / وإذا كنّا صبرنا على كلّ هذا.. فذلك من أجل وطن.. .. ليس إلا ...، وما نحن نراه / الآن عائداً من طين الجبهات ورصاص السواتر البعيدة، يخلع خوذته متعباً فرحاً / ويستريح من عناء الحرب إلى الأبد / الخامسة فجراً.. / بل السادسة.. / والشوارع لم تنم بعد / لا تريد أن تنام¹

يرى عدنان الصائغ أنّ عمال الحكومة الذين يعتبرون مثلاً صادقاً للأذنان ولدعاة الحرب في العراق، يسعون من خلال النفخ في نيران الحرب والقتل والتشريد إلى تحقيق رغباتهم وتطلعاتهم الدنيوية الدنيئة. وعلى المستوى السياسي، فقد نسوا أنفسهم أيضاً، وقد ينتج ذلك عن أنّ القيم الأخلاقية الإنسانية مثل العدالة والحرية والإيثار لا تكون محطّ اهتمامهم ولا تهمهم. ولا شك أنّ الاتسام بهذا المستوى من قسوة القلب واللامبالاة وحتى الإغراب عن السعادة والفرح تجاه موت مواطنيهم وقتلهم، كلّها دالة على أنّ هذا النوع من الشخصيات، قد رضخوا لأنفسهم الأثرة وخضعوا لأهواءهم الدنيئة من خلال إنكارهم ورفضهم أصل الخير في الكون مما أدّى إلى شعورهم بالفراغ الوجودي والضيق والانفصام عن الذات. يشير الشاعر في المقطع التالي إلى هذا الموضوع حيث تجمعت العظام والأشلاء، وكان الحديث بين عمال الحكومة يدور حول جولة الليل، حيث عبروا عن إعجابهم بتلك العيون التي أطفأوا فيها الضوء وأصبحت عمياء إلى الأبد. تحدّثوا عن الأعناق التي جعلوها ترتحف وتنحني كالسنبل في مهب الريح، إذ بدا عليها الزهو بينما كانوا يضحكون، وعن حياتهم التي فقدت معناها سوى ضغط الزناد:

¹. المصدر نفسه، ص 309-310.

بين كومة من عظام وأشلاء حديدية / التفتُ بحذر/ رأيت حولي عشرات من زملاء المهنة/ بهيئات وحشرجات مختلفة/ تبادلنا أطراف الحديث قبل أن ننام/ عن جولتنا الليلية/ عن العيون التي أطفأنا فيها البصيص / عن الأعناق التي كنا نراها مزهوة/ ونُعجب/ كيف ترتجف أمامنا فجأة/ وتتلوّى كسنابل في الريح/ بينما كنّا نضحك/ عن تلك الحياة الشاسعة التي.../ لم تكن تعني لنا سوى ضغطة زنّاد¹

يرى عدنان الصائغ أنّ العوامل الخارجية، بما في ذلك الاستعمار وتأجيج الحروب من قبل أصحاب السلطة، قد حرّمت المجتمع العراقي من فرصة التفكير في أصل العالم في ظل الظروف الحرجة والمتضاربة التي سببتها سيطرة المحتلين، وبالتالي بنسيانته لذاته الحقيقية المتعالية، قد شعر بالتناقضات والفراغ الأخلاقي والضياغ. من هذا المنطلق لقد أدى الدمار الشامل الذي خلفته الحرب وهجوم المحتلين إلى دفع الشاعر ومجتمعه إلى الفراغ الذي يعدّ من تداعيات أزمة الهوية. في الحقيقة قام الشاعر بتجسيد أجواء وأوضاع العراق المليئة بالأس والفراغ والتأزم وذلك من خلال وصف ظروف المجتمع العراقي التسعة وآلامهم التي أنتجتها الحرب والاحتلال والدمار، ليس أمراً جديداً احتلال الأراضي على أيدي المحتلين، وفي مقدمتهم أمريكا وبريطانيا، خاصة في العراق. عدنان الصائغ يستحضر هذه المعاناة في قصيدته "تضييق البلاد"، حيث تتمزج مشاعر الحزن بالألم وتضييق المساحات يوماً بعد يوم، ومع كل ضيق في الأرض، تتسع الكتابات التي يخطها الشاعر، وتقلص دوائر الأصدقاء نتيجة الهجرة القسرية أو الفقد، بينما تزداد شدة الحرب في الوطن:

تضييق البلاد/ تضييق.../ تضييق/ وتتسع الورقة/ البلاد التي نصفها حجر/ والبلاد التي دمعها مطر/ والبلاد التي.../ تضييق البيوت/ وتتسع العائلة/ تضييق النساء، الخنادق والأصدقاء/ وتتسع الطلقة القاتلة²

في المقطع السابق، ظهر عدنان الصائغ كأحد أفراد الشعب، مميزاً بين الشعراء الآخرين، حيث قام بثورة شعرية في وجه الاستعمار. تتجلى في أشعاره بوضوح ثيمة محاربة الاستعمار ورموزه، بالإضافة إلى حبه العميق لوطنه، مما جعلها تتأصل في كيانه، الشاعر يعبر عن حزنه الشديد لهيمنة الأجانب على أرضه، إنّ الجملة (والبلاد التي...) جاءت مبتورة فيبدو أنّ الحالة المساوية في نفسية الشاعر لقد ازدادت بحيث لا يتمكن من التعبير عنها.

الاغتراب والهجرة القسرية من الوجوه السوسولوجية السلبية الأخرى للعراق والتي تشعر الشاعر والمجتمع العراقي بالعدمية. الشاعر يعيش عيشة تسعة بعيداً عن بلده في المنفى وهو أرغم على الهجرة، ليقضي حياته في العزلة وهذا في ظلّ النظام المستبد الطاغوي الذي يسحق الحرية يعيش الشاعر في عالم من التشتت والاغتراب، يتجول بلا غاية، كما يركل الطفل كرتها الصغيرة بدافع الملل، يركل حياته بين الشوارع، بخطوات مترددة وبلا غاية. إنّ حضور مفردات وتراكيب (الدموع، تيبس، راكلاً حياتي، ضجراً) تعكس حرارة الفراغ النفسي الناتجة عن الهجرة القسرية وحياة الشاعر في المنفى كما تسرد الشعور بالفراغ والضياغ والعدم:

الدموع تتيبس على شفتي/ ولا أجد من يمسحها/ راكلاً حياتي بقدمي من شارع إلى شارع/ مثلما يركل الطفل كرتة الصغيرة ضجراً منها/ وأنا...³

¹. المصدر نفسه، ص 46-47.

². المصدر نفسه، ص 130-131.

يشعر الشاعر بالضيق والفراغ وقد عزّز هذا الإحساس أسلوبياً التكرار الاستهلاكي لمفردة (وداعاً) التي تحتّر الذكريات الماضية بضغط الواقع السلبي الاغترابي (وداعاً لنافذة في بلاد الخراب/ لكن المنافي أمر) والتي قد عشت في ذهن الشاعر وقد مزّت أوتار قلبه إرباً إرباً، إن تكرار كلمة وداعاً في الحقيقة نريف ذكريات تحكي حالة التأزم والفراغ وتسرد مشاعر الألم والاضطراب والتوتر النفسي إثر رحيل الشاعر عن موطنه الحبيب؛ كما تعبّر عن الشوق المكبوت والبعد والحنين إلى الوطن:

وداعاً لنافذة في بلاد الخراب/ وداعاً لسعف تجرده الطائرات من الحضرة الداكنة/ وداعاً لتتور أمي/ وداعاً لتاريخنا المتآكل فوق التوازن/ {...}/ نغادره الوطن المرّ/ لكن إلى أين؟/ كلّ المنافي أمر...¹

يتميز المقطع التالي ببؤرة دلالية تحكي الحيرة والضيق وحالة من الفقد النفسي القاسي التي يحاول الشاعر قدر جهده أن يتجاوز عن هذه الحالة عبر قضاء وقته بين البارات والمقهى عله يخفف عنه وطأة الاغتراب والحياة في المنفى. ومن حيث الأسلوب فإنّ المتأمل في المقطع التالي يجد أنّ التراكيب اللغوية المسيطرة على النص (أوراق الرسائل الممزقة/ الدموع المكسرة/ الأصابع الضائعة) تعزّز مدى انفصام الذات، وحالة الارتباك، وتسلب الضيق والقلق النفسي للواقع السلبي والمرّ الذي يعيشه الشاعر في تشوّده عن موطنه العراق:

أطيار بحيني في قارات العالم/ مثل أوراق الرسائل الممزقة/ دموعي مكسرة في البار/ وأصابعي ضائعة على مناضد المقاهي تكتب رسائل الحني / لأصدقائي الذين لا أملك عناوينهم²

وعلى رغم أن العودة إلى أحضان الوطن قد يترك مجالاً متواضعاً لعلاج قروح الشاعر، إلا أنه لا يتيّسر للشاعر الهروب من الفراغ الوجودي والضيق لأن أصدقاءه فقدوا أجمل لحظات حياتهم:

سأجلس على باب الوطن محدّوب الظهر/ كأغنية حزينة تنبعث من حقل فارغ/ يُعْطِني الثلج وأوراق الشجر اليابسة/ أنظر إلى أسراب العائدين من منافعهم كالطيور المتعبة/ أمسح عن أجفانهم الثلوج والغربة/ إنهم يعودون.../ لكن من يعيد لهم ما ضيّعوه/ من رمل وأحلام وسنوات³

الأوضاع الاجتماعية وأحوال المجتمع في زمن عدنان الصائغ سيئة للغاية وقسوة قلب أبناء الشعب واللامبالاة تجاه القضايا البشرية مسيطرة على المجتمع العراقي، والتي أثّرت مباشرة في زيادة شعوره بالفراغ والضيق. وبما أن عدنان الصائغ يحمل في قلبه نزعة إنسانية عميقة، لم يستطع أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه المحن التي لا تقبلها الإنسانية، لذا بدأ يتناول هذه الظاهرة من زاوية جديدة ومبتكرة. الشاعر في المقطع السردى التالي يعبر عن مواقف إنسانية، فيتحدّث عن انكساراته

³. المصدر نفسه، ص 67.

¹. المصدر نفسه، ص 53-54.

². المصدر نفسه، ص 68.

³. المصدر نفسه، ص 68.

النفسية وآلامه التي تحيط به إثر اغتيال أحد مواطنيه في أحد شوارع المدينة ويمر الآخرون دون أن يعبأوا بالرجل. فيرى الشاعر الالتزام بالإنسانية أمراً من ضروريات الحياة التي لا بد منها:

ذات مساء/ وبينما كان المطر ينهمر/ في شوارع المدينة/ أخرجني من دفء جيبه/ حركني ببرود أعصابه/ ووجهني إلى ظهر رجل/ كان منحنيًا لالتقاط شيء لم أره/ إذ تكوّم الرجل فوقه فجأة/ بينما اتسعت خطوات صاحبي¹

ضغوط الاستبداد وتشديد الخفقان الموجود يسفر عن العدمية والخضوع الشائع بين الناس في ظروف القهر والذلّ التي يعيشونها، وقبول الأمر الواقع والخضوع أمامه من علامات اليأس والفراغ في قصائد عدنان الصائغ. لا تُلاحظ الحرية لا في الأفكار ولا في الكلام في المجتمع ويجب على الجميع أن يتظاهروا ويتجاهلوا لأنهم إذا خالفوا النظام الموجود، يفقدون كل ما امتلكهم وإضافة إلى هذا أحياناً يغتالون ويموتون لمعارضتهم مع النظام. ثمة كبت سياسي متسع النطاق في البلد والشعب لا يتقنون البعض لأنّ هناك جواسيس انتشروا بين الناس، فلا يجزّأ أحد بالشكوى والجميع يتظاهرون بالرضا عن الظروف الموجودة، يرى عدنان الصائغ أنّ أجواء الاستبداد والكبت العارم في المجتمع تعتبر من أسباب رئيسة في إشعار الشاعر ومجتمعه بالفراغ والضياع. يتناول الشاعر قضية الاختناق الذي يعيشه المجتمع العراقي، حيث يسيطر هذا الشعور على حياة المواطنين داخل منازلهم وخارجها. في قصيدته "ثلاثة مقاطع للحيرة"، يروي توصية أب لابنه بعدم الكشف عن رؤياه لأحد، خشية أن تصل إلى أذان السلطان، إذ تتواجد الجواسيس والأعين المتلصصة في كل زاوية من الشوارع:

قال أبي:/ لا تقصّص رؤياك على أحد/ فالشاعر ملغوم بالأذان/ كلّ أذن/ يربطها سلك سري بالأخرى/ حتى تصل السلطان²

ظاهرة الفقر هي من الظواهر الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع العراقي. الفقر كارثة عظيمة يعاني منها الإنسان – أياً كان وأينما كان، فالفقر آفة خبيثة تنتشر في عروق المجتمع، وتأتي بالأمراض الاجتماعية والنفسية التي لا طائلة من وراءها وتأتي بالانحراف عن السداد والصوب. وجود الفقراء في مجتمع صناعي متقدّم يمثّل تحدياً قوياً للنظام الرأسمالي، ويهدد أركان ذلك النظام، ومن ثم نجد الهيئات الحكومية والخاصة تلتفت إلى تلك المشكلة وتشجع إجراء بحوث حولها. وفي داخل المجتمعات النامية، أو شعوب العالم الثالث، تمثل دراسة هذا الموضوع شيئاً بديهياً لعلماء الاجتماع في تلك البلاد، فإنّ دراسة من هذا النوع هي الواجب الأول والأساسي³. يعدّ الفقر من عوامل الفراغ والضياع والانفصام عن الذات في المجتمع، والذي نجده حتى في الطبقة المثقفة بالإضافة إلى الطبقة العادية من الناس. عدنان الصائغ يُظهر لنا عاهات اجتماعية أخرى اجتاحت فضاء عراق وشعبه منها فقر الطبقة المثقفة وهو كان يعيش في فقر مدقع، حتى أنه لم يكن لديه ما يكفي من النقود لشراء دواء ابنه أو لتناول عشاء في مطعم متواضع. لذا، اعترز شحذ همته وبدأ في الكتابة، حتى أغمض عينيه إلى الأبد:

1. المصدر نفسه، ص 45-46.

2. المصدر نفسه، ص 9.

3. الجوهري، محمد، (2008م)، مدخل إلى علم الاجتماع، القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ص 93.

أرعى عينيه الخائرتين../ حزيناً، مُنطفئاً/ وتذكر أنّ دراهمه/ لا تكفي ... لشراء دواء ابنته/ لا تكفي... لعشاء في أرخص مطعم/ لا تكفي!.../ شمرّ ساعده../ ومضى يكتب.. يكتب.. يكتب.. يكتب/ يكتب، يكتب/ يكتب/ يكتب.. حتى مات¹

فالفقر يشكل السبب الرئيس لتزدّي الأوضاع في العراق وبالتالي إشعار الشعب العراقي بالفراغ الوجودي، والشعراء بما فيهم عدنان الصائغ لم يصمتوا مع هذا الوضع، فحضور أغلبهم في بطن المجتمع ولمسهم معاناة الناس أدّى إلى تقديمهم صور صادقة من مشاكل المجتمع. رسم عدنان الصائغ تلك المشاهد والمعاناة الناجمة من البؤس والحرمان في أشعاره خاصة عند الطبقة المثقفة بوصفهم فئة من الأشخاص المتعلمين المنخرطين في الأعمال الذهنية المعقدة التي لها دور نقدي وتوجيهي وقيادي في تشكيل ثقافة وسياسة مجتمعهم.

في الحقيقة إن الشاعر، من خلال قراءته لصفحات تاريخ بلاده، توصل إلى نتيجة مفادها أن الظلم والتمرد والاضطرابات المتوالية في بلاده هي بمثابة مرض مزمن لا سبيل إلى علاجه ولا حين مناص منها مما أذى إلى إصابة الشاعر ومجتمعه إلى الفراغ الوجودي والضياع باعتباره حصيلة أزمة الهوية. وفي قصيدة مفتتح يعبر عن فهرس كتب تأريخهم مليء بالظلم والجنرالات الطاغية وملطّخ بالدم وأحلامهم التي ذهبت أدراج الرياح:

أَتَصَفِّحُ كُتُبَ التَّأْرِيخِ/ فَتَلَوْتُ أَصَابِعِي ... /... بالدم/ كَلَّمَا قَلْبْتُ فَصَلًّا لَطَافِيَةً/ قَادِي حِرَّاسَهُ/ إِلَى الْفَهْرَسْتِ/ فَارْتَجِفْ
هَلِيعًا/ أَيُّهَا الْجُرَّالَاتِ/ مَاذَا صَنَعْتُمْ بِأَحْلَامِنَا؟/ أَكَلَّ هَذِهِ الْجُزْمَاتِ السُّودَ/ الَّتِي تَسَلَّقَتْ أَعْنَاقَنَا/ وَمَا زِلْنَا نَلُوحُ لِلشَّمْسِ؟!²

3.1.3 الأزمة الثقافية:

عندما نتحدث عن أزمة الهوية، أول شيء يتبادر إلى الذهن هو جانبها الفردي والنفسي. في حين يمكن للأزمة أيضاً أن تعكّر صفو الهوية الثقافية والجماعية للمجتمع وتقضي عليها. تعدّ الهوية الثقافية والجماعية أحد القضايا التي عالجها عدنان الصائغ في قصائده. بما أنّ الظروف المتدهورة في العراق التي تعاني من الاضطرابات والأزمات والحروب الشعواء والاحتلال الغربي تشكل لبنة أساس لقصائد الصائغ السياسية والاجتماعية، فنجدّه ينتقد الأزمة الثقافية وتطهراتها التي تتحكم على العراق وتسودها. في البداية تجدر الإشارة إلى أن عدنان الصائغ يرى الهوية الثقافية مرتبطة بمفهوم الوطن والماضي التاريخي التليد للأمة. يعتقد الشاعر في المقطع التالي بأنّ الدماء التي سالت على تراب الوطن عبر التاريخ تعدّ عاملاً في تنشئة الهوية والتحفيز على استمرار الحياة؛ هوية تحارب التنين المتغطرس الاستعماري الذي أراد أن يدوس وطن الشاعر باعتباره الهوية الثقافية والوطنية للمجتمع العراقي:

وها نحنُ نعود الآنَ ننقُضُ بقايا المعارك عن أجسادنا وأرواحنا، ونجلس قليلاً في انتظار صوتِ المذيعِ المتهدِّجِ وهو يعلنُ البيانَ الأخيرَ للحرب،/ لنخرجَ أو قل لتندفَقَ إلى الشوارعِ بكلِّ جنونِ فرحِ المخبوءِ طيلة ثمانية أعوام،/ بكلِّ هذا السيلِ

¹. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية- عدنان الصائغ، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص475، 476.

2. المصدر نفسه، ص 86.

الذي اكتسح كل شيء... / {...} / وإذا كنّا صبرنا على كل هذا... / فذلك من أجل وطن... / ليس إلا... / وها نحن نراه¹

«الوطن هو الكيان الذي ينتمي إليه الشخص ويعتبره أساس بدايته ونهايته، وهو الحضن الذي يضم أبناءه ويحتويهم، وهو المستقر والأمان، فهو أعلى ما في الوجود، ولولا وجوده لا تكون للإنسان قيمة، وهو المكان الذي تطلّ الروح تحنّ إليه مهما ابتعدت عنه، ويطلّ الفؤاد يهوي إليه مهما أحسن فيه الشخص بالحزن والألم²»، لذلك يحتل الوطن في أشعار الشاعر العراقي باعتباره مكوّنًا من مكوّنات الهوية الثقافية فالتغني به والحديث عنه يشكل لبنة رئيسة لقصائد الشاعر وأعماله الأدبية. فيعدّ الصائغ الدفاع عن الوطن واجباً لكونه ملاذاً لأبناء وطنه ومكاناً يؤانس صاحبه في حزنه ويلاطفه ويمنحه الأمان والهدوء والاستقرار فيرى الشاعر في نهاية المقطع أنّ وطنه باعتباره مصدر العزة والرفعة والهوية قد مرّق أحشائه المحتلون وقد جعلوا للنهر سوراً وملّكوه:

فأرى الأفق أكثر من وطن/ يتشكل غيماً أعلّق حزني فيه.. وأرحل/ كان الفرات على بعد كأس بمقهاك/ كانت منائر بغداد/ تمشي قبيل الغروب إلى الجسر/ كي تتوضأ في ماء الدجلة/ من سور النهر؟/ من أبعد النخل عن ليل نافذتي؟³ يعبر الشاعر في النص السابق عن انكساراته وآلامه النفسية التي تحيط به من كل جانب، وينتهي حديثه بأسئلة مفتوحة تترك القارئ في حالة من التوتر والفضول، يحفز للبحث عن الحقائق المهمة التي تتعلق بهذه الاستفسارات. كما يعبر عن حالات مأساوية تعكس مشاعر الشاعر الذي يحمل هموم شعبه في قصائده، مستخدماً لغة حزينة ومؤلمة. فالشاعر، كغيره من أبناء وطنه، يسعى جاهداً للبحث عن ملاذ يأوي إليه ومكان يستقر فيه.

يتحدّث عدنان الصائغ عن مشروع تغريب الهندسة المعمارية في العراق ويرى أنّ القضاء على الهوية الثقافية للمجتمع العراقي على يد الغزاة لا يقتصر على احتلال الوطن فحسب، بل إن مظاهر تدمير الهوية الثقافية للمجتمع العراقي تجلت في أساليب العمارة والإنشاءات الجديدة من قبل المحتلين. وباعتقاده، فإن نوع العمارة والبناء يتوافق مع ثقافة المجتمع الغربي، بحيث كانت الهندسة المعمارية قبل احتلال العراق تذكرنا بالثقافة العراقية القديمة. من ثمّ لقد شهد نوع العمارة والهندسة المعمارية تحولاً وهو بعيد عن الثقافة الأصلية والقديمة:

تعلو العمارات، .. تعلو .. وتعلو... / لا مبالية/ فوق أنقاضنا/ مالذي نفعل الآن/ أسفل جدرانها/ هل نبيع السجائر...⁴ وقد سلّط عدنان الصائغ الضوء على سبب مهم أدّى إلى نشوء الأزمة الثقافية لدى المجتمع العربي. وهو أن بناء الهوية الجماعية والثقافية وتنشئتها وتحقيق التقدم في هذا المجال يتطلب الصدق في نوايا وتصرفات كل فرد من أفراد المجتمع، وخاصة الإعلاميين، في حين أن النظرة السائدة بين وسائل الإعلام كعنصر مؤثر في الهوية الثقافية العربية هي نظرة لا تكون القيم الأخلاقية محطّ اهتمامها وحل محلها الأخلاق المترخية واللاإنسانية. وجهة نظر عدنان الصائغ متجذرة في

1. المصدر نفسه، ص 234.

2. غافلي، جمال؛ وصالح، ييمان؛ وشيرخاني، محمدرضا، (2020م)، سوسيولوجيا الأدب في أشعار الدكتور صالح الطائي، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، المجلد 1، العدد 39، ص 79.

3. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية- عدنان الصائغ، عقان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص 85.

4. المصدر نفسه، ص 192.

الواقع المرير للمجتمعات العربية وفساد القيم الأخلاقية فيها، والتي تكاد تنأى عن القيم العربية الأصيلة والعريقة. وينبه الشاعر حكام العرب إلى ما حدث في بيروت، حيث المحطات مغلقة والقطارات تكتظ بالجثث، بينما بعض الجرائد مشغولة بمدح الحكام، فيقول ساخراً منهم:

يا بريد الدم العربي! / ماذا ببيروت؟ / إنّ المحطّات موصدة/ والقطارات ملغومة بالجثث! / وبعض الجرائد مشغولة / -لا تزال- / بتمجيد حكامها/ فماذا تقول القصيدة؟... بيروت! / إنّ صيارفة العصر منتشرون بكل زوايا المدينة/ إنّ رجال المباحث ملتصقون بكلّ خلايا القصيدة/ ماذا ببيروت؟! / لا شيء!... / لا شيء!... / لا شيء!... / لا شيء يدعو لإطفاء غليونك الذهبي/ فثمة ناسٌ يموتون... / يا سيّدي!¹

أماط عدنان الصائغ اللثام عن عامل آخر في تفسير جذور أزمة الهوية الثقافية والجماعية وهو الصراع والتضاد القائم بين القيم الأصلية والماضية والتأثير الثقافي الغربي وتدايعاته في تدمير القيم الأخلاقية. انتقد الشاعر العراقي القيم الغربية الجديدة التي سادت العراق، واعتبر التوجه نحو حكم العقلانية الغربية لشريحة من المجتمع سبباً في إثارة الفجوة العميقة بين القيم القديمة والثقافات التقليدية مع العالم الجديد، مما خلق أيضاً نوعاً من الصراع والازدواجية في الهوية الجماعية الثقافية. لقد تشابكت حياة العربي في العراق بألوانها التقليدية مع لمسات من الحداثة الغربية. ومن تلك المظاهر التقليدية التي تستوقف القارئ في هذه القصيدة، هو تطاير الذباب مع ألحان الأغاني التي تعزف في المقاهي وصولاً إلى فناجين الشاي. بينما أن هناك سيدة تنزل من سلم الباص، تأسر الأنظار بنظرات فضولية نحو فخذيها، وهي ترتدي ثياباً قصيرة صارت رائجة في المجتمع العراقي المسلم. وفي البحث عن جذور هذه الأزمة، يحدد عدنان الصائغ أنّ إهمال رجال الدولة قد جعل شريحة من المجتمع تستنكر كل التقاليد الماضية لانصهارهم في الثقافة الغربية، مما أدّى إلى استعجالهم وفي التقليد عن الغرب وثقافته:

قاطعتنا أغاني المقاهي التي سيحطّ الذباب على لحنها ويطير إلى الشاي، سيّدة/ بالثياب القصيرة تهبّط من سلم الباص تفرصها النظرات المريبة من فخذيها.. / فتجفّل، موجّ الزحام الذي يتلاطم فوق ضفاف المحلّات مُنحسراً آخر الشهر نحو/ البيوت التي ستجفّف أيامها فوق جبل غسيل الديون، المذيع الذي سوف يُلثِّغ باللام/ حين يمرّ باسم وزير الثقافة، عاملة البار تشكو النعاس²

إنّ الدين هو الحياة التي يتمّ التعاطي معها بجدية وهو جزء شمولي من الحياة. إنّ كل ديانة هي تنظيم في معنى ما وبالإضافة إلى العقائد تتضمّن كل ديانة عدداً معيناً من الأوامر والنواهي. إن عدنان الصائغ، بتأكيده على الجانب الديني للهوية والحضارة الدينية، قد عدّ الهوية الثقافية للعراق والشعب العربي جزءاً لحضارته. بعبارة أخرى استخدم الشاعر القومية الدينية وعرفها كعنصر أساسي يؤدي إلى تشكيل الهوية الثقافية. وبالطبع فإن الشاعر من خلال نقده الظروف

¹. المصدر نفسه، ص 439-440.

². المصدر نفسه، ص 50.

التعسة التي تعيشها البلاد العربية يدعوها إلى الوحدة والتقارب ضد الاحتلال والعدوان وذلك من خلال التأكيد على الجانب الديني كعنصر من عناصر الهوية الثقافية:

لا ناقوسٍ / ولا مئذنة / يا عبدُ - / لماذا / لا تسمُ / ربَّكَ / في / النَّاي¹

4. خاتمة:

تمّ التوصل إلى النتائج التالية من خلال قراءة فاحصة لأشعار عدنان الصائغ من منظور النقد السوسيولوجي:

1. يعتبر عدنان الصائغ في نقده لظاهرة التشيؤ أن القدرة والرغبة في السيطرة على الأفراد تحولت إلى أداة تحل محل الطبيعة الإنسانية، حيث تؤدي هذه الظاهرة إلى تحويل الإنسان إلى شيء يُستخدم وفقاً لرغبات الآخرين. يرى الشاعر أن هذه الظاهرة قد دمرت البشرية، وسحقت قيمها وكرامتها. كما يوجّه الشاعر انتقاداته لموظفي الحكومة المستبدّين والانتهازيين، الذين يتعاملون مع البشر كأدوات تُستغل وتُهدم من أجل تحقيق المكاسب المالية واكتساب المناصب، ملءً لفراغهم في التسلية. ويؤكد الشاعر أن الحروب وما تترتب عليها من قمع وفقر تُعتبر من الأسباب الرئيسية التي تساهم في انتشار ظاهرة التشيؤ، إذ أن تزايد الفقر يُجبر الإنسان على التنازل عن إنسانيته، مما يقوده إلى مصيرٍ يشبه السلعة.

2. يرى الشاعر أنّ الحروب التي اجتاحت العراق في العقود المختلفة وإرهاصتها الخطيرة كلها قد أثرت مباشرة في الشعور بالفراغ والضياع بوصفها إحدى مظهرات أزمة الهوية عند رجال الدولة والمجتمع العراقي. يعتقد الشاعر أن أذنان الحكومة قد استسلموا لنزواتهم الشخصية وخضعوا لرغباتهم الدنيئة، مما دفعهم إلى إنكار أصل الخير في الكون، وهذا ما أدى إلى شعورهم بالفراغ الوجودي والضياع والانفصام عن الذات. تُعتبر ظاهرة الاغتراب والهجرة القسرية من الوجوه الاجتماعية السلبية الأخرى التي تؤثر على الشاعر والمجتمع العراقي، مما يشعرهم بالعدمية. يعيش الشاعر حياة منفى بعيداً عن بلده، وقد أُجبر على الهجرة، ليقضي أيامه في العزلة في ظل نظام مستبد يقيد الحرية. يرى عدنان الصائغ أن أجواء الاستبداد والكبت المتفشى في المجتمع تعتبر من الأسباب الرئيسية لشعور الشاعر ومجتمعه بالفراغ والضياع. يتناول الشاعر قضية الاختناق في المجتمع العراقي، والتي طغت على حياة العراقيين سواء داخل منازلهم أو خارجها. يُعتبر الفقر من العوامل المؤدية إلى الفراغ والضياع والانفصام عن الذات في المجتمع، وهو أمر يمكن ملاحظته حتى في الطبقة المثقفة بالإضافة إلى الطبقة العامة من الناس.

3. يعتقد عدنان الصائغ أن الهوية الثقافية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الوطن والتاريخ العريق للأمة. يرى الشاعر أن التضحيات التي قُدمت على تراب الوطن عبر الزمن تُعتبر فعلاً أساسياً في تشكيل الهوية وتعزيز استمرار الحياة. هذه الهوية تقاوم التنين المتغطرس للاستعمار الذي حاول سحق وطن الشاعر، والذي يمثل الهوية الثقافية والوطنية للمجتمع العراقي. يناقش عدنان الصائغ مشروع التغريب في الهندسة المعمارية بالعراق، ويشير إلى أن تدمير الهوية الثقافية للعراقيين على يد الغزاة لا يقتصر على الاحتلال العسكري، بل يتجلى أيضاً في أساليب العمارة والبناء الحديثة التي نقّذها المحتلون. ينتقد الشاعر القيم الغربية الجديدة التي طغت على العراق، ويعتبر الاتجاه نحو العقلانية الغربية لبعض شرائح المجتمع دافعاً لظهور

¹. المصدر نفسه، ص 352.

فجوة عميقة بين القيم القديمة والثقافات التقليدية وبين العالم الجديد، مما أدى إلى نشوء صراعات وانقسامات في الهوية الثقافية الجماعية.

4. يعتقد الشاعر أن أحد الحلول للخروج من أزمة الفراغ والشعور بالضياع هو تحقيق السلام والهدنة والتخلي عن الحرب. يتمنى الشاعر أن تتلاشى من ذاكرة الشعب صور المدافع والرشاشات التي غزت كل ما حولها، ليحل الأمن والسلام في بلده، ويستريح شعبه من عناء الحرب والخراب والدمار إلى الأبد، خارجين من منازلهم معبرين عن الفرح المكبوت في نفوسهم. يؤكد الشاعر أن التزام الناس عموماً وأذناب الحكومة خصوصاً بالقيم الأخلاقية الإنسانية مثل العدالة والحرية والإيثار يُعدّ حلاً آخر لمواجهة الشعور بالفراغ الوجودي، والذي يُعتبر أحد تجليات أزمة الهوية. استخدم الشاعر القومية الدينية وعرفها كعنصر أساسي يساهم في تشكيل الهوية الثقافية. ومن خلال نقده للظروف الصعبة التي تعيشها البلدان العربية، يدعو الشاعر إلى الوحدة والتقارب ضد الاحتلال والعدوان، مع التأكيد على الجانب الديني كعنصر من عناصر الهوية الثقافية.

قائمة المراجع:

• المؤلفات:

1. الأنطاكي، يوسف، (2009م)، سوسيولوجيا الأدب (الآليات والخلفية الإبيستيمولوجية)، القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.
2. التريكي، عبد الوهاب المسيري فتحي، (2012م)، الحداثة وما بعد الحداثة، الطبعة 2، الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع.
3. تسليمي، علي، (2011م)، النقد الأدبي: النظريات وطرائق استخدامها في الأدب الفارسي، الطبعة 2، طهران: كتاب آمه.
4. جالي، جودت، (2017م)، الهجاء السياسي في الشعر العراقي، الشارقة: دار ضفاف للطباعة والنشر.
5. الجوهري، محمد، (2008م)، مدخل إلى علم الاجتماع، القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية.
6. ديكارت، رنتيه، (1988م)، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج، بيروت: منشورات عويدات.
7. زيماء، بير، (2010م). النص والمجتمع (آفاق علم اجتماع النقد)، ترجمة: أنطوان أبو زيد، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
8. ساري، محمد، (2009م)، الأدب والمجتمع، الجزائر: دار الأمل.
9. الصائغ، عدنان، (2004م)، الأعمال الشعرية- عدنان الصائغ، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع.
10. عتيق، عبد العزيز، (1972م)، في النقد الأدبي، الطبعة 2، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

11. عبيد، محمد إبراهيم، (1990م)، الاغتراب النفسي، القاهرة: الرسالة الدولية للإعلان.
12. غولدمان، لوسيان، (1993م)، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ترجمة: بدرالدين عروديكي، بيروت: دار الحوار للنشر والتوزيع.
13. لحمداني، حميد، (1990م)، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي.
14. ماركوزه، هربرت، (1980م)، انسان تك ساحتي، ترجمة: محسن مؤيدي، الطبعة 3. طهران: انتشارات امير كبير.
15. الموسى، عبدالحاميد أنور، (2011م)، علم الاجتماع الأدبي، بيروت: دارالنهضة.
16. ميكشيللي، أليكس، (1993م)، الهوية، ترجمة: علي وطفة، دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعية.
17. مهران، محمد، (1994م)، مدخل إلى المنطق السوري، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

• الأطروحات:

1. بن نكاع، مولاي أحمد، (2013م)، ملامح الهوية في السينما الجزائرية، قسم الفنون الدرامية، كلية الأدب واللغات والفنون، جامعة وهران: الجزائر.
2. دلول، سيرين، (2022م). أزمة الهوية وإشكالية الانتماء في الرواية الإفريقية مقارنة في رواية سمراويت لحجي جابر من منظور النقد الثقافي، قسم أدب عربي، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي التبسي: الجزائر.
3. عشاب، نجلاء، (2021م)، إشكالية التشيؤ عند جورج لوكاش، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة: الجزائر.

• المقالات:

1. غافلي، جمال؛ وصالح، پيمان؛ وشيرخاني، محمدرضا، (2020م)، سوسيولوجيا الأدب في أشعار الدكتور صالح الطائي، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، المجلد 1، العدد 39، ص 71-90.
2. كاريگن، پيتر، (2014م)، بت واركي كالاها: مروري بر برخي پیامدهاي سرمايه داري و تأثير آن بر رفتار انسانها، ماهانه سوژه سبك زندگي، العدد 81، ص 40-69.